سلسلة فقه الدعوة وتزكية النفس (٦)

مصيبة موت النبي

صلى الله عليه وسلم

وأثرها في حياة الأمة

بقلم

حسين بن عودة العوايشة

دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى للطبعة الجديدة

١٤٢٣ هـ

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات اصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

المقـدّمـة

إنَّ الحمْدَ للهِ؛ نحمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أَنْفُسِنا، وسيِّئاتِ أعمالِنا، من يَهدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِل فلا هاديَ لهُ.

وأَشهَدُ أنْ لا إله إلا اللهُ، وحدَه لا شريكَ له.

وأَشْهَدُ أنَّ مُحمَّداً عَبدهُ ورَسولهُ.

﴿يا أيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حقَّ تُقَاتِهِ ولاَ تَمُوتُنَّ إلا وَأَنتُم مُسْلِمُونَ﴾(١).

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُم مِنْ نَّفْسٍ وَاحدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثيراً ونساءً واتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَساءَلُونَ بِهِ والأَرْحَامَ إنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُم رَقِيباً﴾(٢).

---

(١) آل عمران: ١٠٢.

(٢) النساء: ١.

﴿ يا أيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَديداً يُصْلِحْ لَكُم أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُم ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾[1].

أمَّا بعد:

فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدْي هدْي محمّد، وشرّ الأمور مُحدثاتها، وكلّ مُحدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النّار.

فقد وفَّقني الله تعالى لكتابة هذه الرسالة في «مصيبة موت النّبيّ ﷺ وأثرها في حياة الأمّة»، عسى الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يجعل فيها النفع العظيم بفضله ومنّه.

أقول: إنه لمن الغريب أن يغيب عن بال كثيرٍ من طُلاّب العلم والدُّعاة إلى الله ـ تعالى ـ عِظَمُ مصيبة موت النّبيّ ﷺ، لا سيّما وقد نبَّهَنا على ذلك رسول الله ﷺ، فقال:

«إذا أُصيب أحدكم بمصيبةٍ؛ فليذْكُر مُصيبتَه بي؛ فإنها أعظم المصائب»[2].

---

(١) الأحزاب: ٧٠، ٧١.

(٢) سيأتي تخريجه في بداية البحث ـ إن شاء الله ـ.

وإنّ إفادتنا من هذا الحديث؛ لا تقف عند ما يرشد إليه من ضرورة صبر الفرد عند المصيبة فحسب؛ بل إنه من مفاتيح الرّقاق والعلوم والمعارف يُنير السبيل للمسلمين. ويبصِّرهم بأسباب الظلمات التي يحيونَها، ويعرِّفهم على المصائب التي يعيشونها، ويبيّن لهم النجاة باتباع منهاج النّبوة والرسالة.

ولكل عظيمٍ إذا مات أثر عند من يعظّمه، وموته ﷺ لا ينحصر أثره على الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فحسب؛ بل وعلى الأمّة جميعاً.

فأرى لزاماً علينا أن نتدبّر أثر موته ﷺ على الفرد والأمّة، عسى ذلك أن يغيِّر من واقعنا المؤلم إلى ما هو أفضل.

ولم أتطرّق إلى كل أمر يتعلّق بوفاته ﷺ أو يسبقه أو يعقبه؛ من مرضٍ، أو احتضارٍ، أو دفن، ونحو ذلك؛ بل اخترتُ في بحثي هذا ما يتعلّق بأثر موته ﷺ على الأُمّة.

أسأل الله ـ سبحانه ـ أن يتقبّل عملي هذا وسائر الأعمال، وأن ينفعني به وإخواني، وأن لا يجعل فيه لأحد منه شيئاً.

موت رسول الله ﷺ أعظم المصائب

عن ابن عباس وسابط الجُمَحي ـ رضي الله عنهم ـ، قالا قال رسول الله ﷺ: «إذا أُصيب أحدكم بمُصيبةٍ؛ فليذكر مُصيبته بي؛ فإنها أعظم المصائب»[1].

يتبيّن لنا من هذا الحديث: أنّ موت النّبيّ ﷺ أعظم المصائب التي حلّت وستحلُّ بأُمّة الإسلام، ويطلُب رسول الله ﷺ منّا أن نذكر بمصائبنا موته وفراقه، وبذلك تهون المصائب والخطوب.

وما من عزيز، أو حبيب، أو قريب، أو صديق فقَدْناه؛ إلا وذاق القلب من لوعة فراقه وحُرقة وداعه، فهل شَعَرنا بشيء من هذا ونحن نستشعر فراق وموت النّبيّ ﷺ؟

ماذا لو فقد الرجل أُسرته كلّها، وقد احترق قلبه، وأُدمِي فؤاده، وأنبتت دموعه الأسى، ثمّ تزوّج بعد فترة، وعقب سنوات مات أحد أبنائه، كيف يكون حزنه وألمه إذا قورن بالمصاب الأوّل؟ أليس الخطب أهونَ والمصيبة أقلَّ؟

---

(١) أخرجه ابن سعد، والدارمي، وغيرهما، وهو صحيح بشواهده؛ كما في «الصحيحة» (١١٠٦).

وهكذا ينبغي أن نعزّيَ أنفسنا كلما أصابتنا المصائب؛ بذِكْر موت النّبيّ ﷺ.

إنّ رسول الله ﷺ يخاطبنا فيقول: «يا أيّها الناس! أيّما أحدٍ من الناس - أو من المؤمنين - أُصيب بمصيبة؛ فليتعزَّ بمصيبته بي عن المصيبة التي تُصيبه بغيري؛ فإنَّ أحداً من أمّتي لن يُصاب بُمصيبةٍ بعدي أشدَّ عليه من مصيبتي»[1].

ولو تأمّلنا كلمة (فلْيَتَعَزَّ)؛ لوجدنا فيها الدّواء والعلاج؛ إنّها حروف يَستطِبُّ بها الفؤاد.

ماذا لو فقد الإنسان أبويه الحبيبين في حادث سيارة مثلاً؟ ألا يظلُّ أثر المصيبة في قلبه مدى الدهر؟

ماذا لو فقد أمّه أو زوجته أو ابنه؟

كيف بنا نُصاب بفقد النّبيّ ﷺ ولا نحسُّ؟

إنّ المُصيبة ينبغي أن تعظُم إذا سمعنا قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من ولدِه ووالده والناس

---

(١) أخرجه ابن ماجه عن عائشة - رضي الله عنها - «صحيح سنن ابن ماجه» (١٣٠٠).

أجمعين »[1].

وكأنّ المعنى بعد هذا النصّ سيكون: لا يؤمن أحدكم حتى يكون موتي أعظَمَ مصيبةً من فقده ولدَه، ووالدَه والناسَ أجمعين.

فأين هذا الإحساس؟ وأين - بربّكم - هذا الشعور؟

هذا هو إحساس المؤمن الصادق.

إنّني أرى أن فَقْد النّبيّ ﷺ من مصائب الدِّين، وإنّ أيّ إنسانٍ فقدته ليهونُ أمام فقدان النّبيّ ﷺ.

اصبرْ لكلِّ مُصيبةٍ وتجلّد

واعلم بأنّ المرءَ غير مُخلَّدِ

فإذا ذكرت مُصيبةً تسْلو بها

فاذكر مُصابك بالنّبيّ محمّدِ

هل فقدت أُمّك؟ وهل تذكّرت عند موتها - وأنت تنتحبُ - أنها أخرجتك من ظلمات البطن إلى نور الدُّنيا، ورعتك، وربّتك؟

---

(١) أخرجه البخاري: ١٥، ومسلم: ٤٤.

لقد أخرجك اللهُ بدعوة رسول الله ﷺ من ظلمات الضلالة إلى نور الهدى والتوحيد، وهذا ـ بإذن الله تعالى ـ إنقاذ لك من الخلود في النار، فهل بلبن أُمّك وحنانها وعطفها تُنْقَذُ من الخلود في النار؟

فوالله؛ لو كان لي ألف أمٍّ بحنان أمي وعطفها، ومُتْنَ في يوم واحد، لما كان لي أن أحزن عليهنّ أكثر من الحزن على موت رسول الله ﷺ!

هل فقدْت ابنك؟

أم زاد من بكائك تذكّرُك عونَه ومساعدَتَه وعطْفَه وَبرَّه؟ ومهما بلَغَتْ هذه الأمور؛ فإنها لن تبلغ ما قدّمه لنا ﷺ من أمور؛ تُدْخلُنا ـ بعون الله تعالى ـ جنّةً عرضها السّماوات والأرض، ونخلد فيها وننعم.

نُمتَّع بعون الأبناء وعطفهم سنوات تمضي؛ لكن التمتُّع في الجنّة لا نهاية له ولا آخر.

أفلا يستحقُّ رسول الله ﷺ منا أن نحزن على موته أكثر من سواه، ونذكره أشدَّ مما نذكر من فقدناه؛ من الأبناء،

والأولاد، والأحباب؟!

ما قدَّمه ﷺ من خير أكثر ممّا قدَّمه أيُّ قريب أو حبيب

وبهذا؛ فإنّ أي حبيب، أو عزيز، أو قريب، مهما لمسنا منه ودّاً، وعطفاً، ورعاية، وعناية؛ فلن يبلغ شيئاً يُذكر، أمام وُدِّ، وعطف، ورعاية، وعناية النّبيّ ﷺ؛ فقد دلّنا ﷺ على أسباب كلّ خيرٍ وسعادةٍ، وحذّرنا من كل سبُل الشّر والخُسران في الدّارين؛ فَمَن من أحبابنا وأقاربنا وأصحابنا قدّم لنا هذا؟

تذكّرْ هذا؛ لتُحسَّ بمصيبة فقْده ﷺ.

ماذا لولا ما حبانا الله ـ تعالى ـ من هديه وسُنّته ﷺ؟

ماذا لو دخلتَ النار؟

ماذا لو حُرِمْتَ من الجنّة؟

ماذا لو عُذِّبْت في القبر؟

من الذي ينفعك؟ وما الذي يُنقذُك من ذلك كلّه؟

شعورُ الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ عند موت النّبيّ ﷺ

وأمّا شعور الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بفقد النّبيّ ﷺ؛ فقد كان أمراً آخر:

فعن سالم بن عُبيد ـ رضي الله عنه ـ، قال: «أغمي على رسول الله ﷺ في مرضه، فأفاق، فقال: حضرت الصلاة؟ فقالوا: نعم، فقال: مرُوا بلالاً فليؤذّن، ومرُوا أبا بكر أن يصلّي للنّاس ـ أو قال: بالنّاس ـ.

قال: ثم أُغمي عليه، فأفاق، فقال: حضرت الصلاة؟ فقالوا: نعم، فقال: مُرُوا بلالاً فليؤذّن، ومرُوا أبا بكر فليصلّ بالنّاس، فقالت عائشة: إن أبي رجل أَسِيف[1]؛ إذا قام ذلك المقام؛ بكى، فلا يستطيع، فلو أمرْتَ غيره.

قال: ثمّ أُغمي عليه فأفاق، فقال: مُروا بلالاً فليؤذّن، ومروا أبا بكر فليصلّ بالنّاس؛ فإنّكنّ صواحبُ ـ أو صواحبات ـ يوسُفَ[2].

(١) أي: سريع البكاء والحُزن، وقيل: هو الرقيق.

(٢) المراد أنهنّ مثل صواحب يوسف في إظهار خلاف ما في =

قال: فأُمر بلالٌ فأذّن، وأمر أبو بكر فصلّى بالنّاس.

ثمّ إن رسول الله ﷺ وجد خفّةً، فقال: انظروا لي من أتّكىء عليه، فجاءت بريرةَ ورجلٌ آخر[1]، فاتّكأ عليهما. فلمّا رآه أبو بكر؛ ذهب لِيَنْكُصَ[2]، فأومأ إليه أن يثبت مكانه، حتى قضى أبو بكر صلاته.

ثمّ إنّ رسول الله ﷺ قُبض، فقال عمر: والله لا أسمع أحداً يذكر أنّ رسول الله ﷺ قُبض؛ إلا ضربتُه بسيفي هذا.

قال: وكان الناس أُمّيّين، لم يكن فيهم نبيٌّ قبله، فأمسك الناس، فقالوا: يا سالمُ! انطلق إلى صاحب رسول الله ﷺ، فادْعهُ، فأتيتُ أبا بكر وهو في المسجد، فأتيته

= الباطن. «الفتح».

وقالت عائشة مقولتها؛ كيلا يتشاءم الناس من أبيها ـ رضي الله عنهما ـ ومعنى هذا ورد في صحيحي البخاري ومسلم.

(١) قال شيخنا ـ رحمه الله ـ: «في رواية «الصحيحين»: «خرج بين العباس ورجل آخر ـ وهو علي بن أبي طالب ـ، وقيل: العباس وولده الفضل، ويُجمع بين الروايات بتعدُّد خروجه ﷺ».

(٢) يرجع حتى يقف رسول الله ﷺ مكانه.

أبكي دهشاً، فلمّا رآني؛ قال لي: أقُبض رسول الله ﷺ؟ قلتُ: إن عمر يقول: لا أسمعُ أحداً يذكرُ أن رسول الله ﷺ قُبض؛ إلا ضربتُه بسيفي هذا! فقال لي: انطلق.

فانطلقتُ معه، فجاء والناس قد دخلوا على رسول الله ﷺ، فقال: يا أيها الناس! أفرجوا لي، فأفرجوا له، فجاء حتى أكبَّ عليه ومسَّه، فقال: ﴿**إنّك ميّتٌ وإنّهم ميّتون**﴾[1].

ثمَّ قالوا: يا صاحب رسول الله ﷺ! أقُبضَ رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، فعَلِموا أن قد صدق.

قالوا: يا صاحب رسول الله! أيُصلّى على رسول الله؟ قال: نعم، قالوا: وكيف؟ قال: يدخُلُ قومٌ، فيكبِّرون ويصلُّون ويدعون، ثمّ يخرجون، ثمّ يدخل قومٌ، فيكبِّرون ويصلّون ويدعون، ثمّ يخرجون ...

حتى يدخل الناس.

قالوا: يا صاحب رسول الله! أيُدْفَنُ رسول الله ﷺ؟

قال: نعم، قالوا: أين؟ قال: في المكان الذي قَبَض الله

(١) الزمر: ٣٠.

فيه روحه؛ فإنَّ الله لم يقبضْ روحه إلا في مكان طيّب. فعلِموا أنْ قد صدَق.

ثمّ أمرهُم أن يغسِّلَه بنو أبيه[1]...»[2].

فقال عمر: «والله لا أسمع أحداً يذكر أنّ رسول الله ﷺ قُبض؛ إلا ضربته بسيفي هذا»!!

ما بالُ عمر - رضي الله عنه - يهدّد بسيفه!

إنّ شأن الرسول ﷺ عظيم في نفسه.

إنّ منزلته ﷺ رفيعةٌ في فؤاده.

لقد أحبَّه أكثَرَ من حبه نفْسَه وولَدَه، وزَوْجَه، وماله، والنّاسَ أجمعينَ.

فكيف بمن يقول: مات رسول الله ﷺ؟!

---

(١) قال شيخنا - رحمه الله تعالى - في «الشمائل»: «أي: عُصْبَتُه، فغسله سيدنا علي - رضي الله عنه -، فكان الفضل بن عباس وأسامة وشقران - مولى رسول الله ﷺ - يناولون علياً الماء».

(٢) أخرجه الترمذي في «الشمائل»، وابن ماجه في «الصلاة» (باب صلاة رسول الله ﷺ في مرضه)، والطبراني في «الكبير»، وبعضه في «صحيح البخاري» (٦٦٤)، وروى بعضَه أيضاً النسائي، وهو في «مختصر الشمائل» (٣٣٣).

أمّا سائر الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ: فإنه لم يكن فيهم نبيٌّ قبل رسول الله ﷺ ليَعْلَموا كيف يتصرَّفون؛ فأمسكوا عن القول.

أمّا أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: فقد أكبَّ على رسول الله ﷺ، ومسَّه، وقرأ قوله ـ تعالى ـ: ﴿**إنّك ميِّتٌ وإنّهم ميّتُون**﴾.

وهذا فقه أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ للقرآن العظيم؛ فقد فقه من هذه الآية أن الموت واقع ـ لا محالة ـ بالنّبيّ ﷺ.

بيْد أنّ هول الموقف وشدَّةَ حبّ الصحابة للنّبيّ ﷺ؛ جعلَتْهم بمنأى عن هذا، ولا عجب؛ فإنّ الفقيد هو رسولُ الله ﷺ.

كم مِنَ الناس مات لهم أبناء؛ فأغشي عليهم، ومنهم من ثنّى الموت به؛ فلحق ابنه، ومنهم من فقد عقله، ومنهم من أُصيب بالأمراض الخطيرة ...

« ثمَّ قالوا: يا صاحب رسول الله ﷺ! أَقُبِضَ رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، فعَلِموا أنْ قد صدق ».

هنالك سكن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، وعلموا أنّ

رسول الله ﷺ قد قُبض.

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ، قال: لـمّـا كـان الـيـوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة؛ أضاء منها كلُّ شيء، فلمّا كان اليوم الذي مات فيه؛ أظلم منها كل شيءٍ، وما نفَضْنا عن النّبيّ ﷺ الأيدي حتى أنكرْنا قلوبنا»[1].

«لما كـان الـيـوم الذي دخل فـيـه رسـول الله ﷺ المدينة؛ أضاء منها كلُّ شيء».

أضاء من المدينة كلُّ شيء.

أشرقت وأنارت الأشياء كلُّها بمقدَم رسول الله ﷺ، ومـلأت الـفـرحـة قلوب الـصـغـار والكبـار، والذكـور والإناث.

فلما كان اليوم الذي مات فيه ...

لّما كان اليوم الذي فقدوا فيه رسول الله ﷺ؛ أظلمَ منها كلُّ شيء.

تبدَّلت عليهم الأرض، فما هي الأرض التي يعرفون.

---

(١) أخرجه ابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (١٣٢٢).

أظلمَ من المدينة كلُّ شيء.

ما كان في يومهم للّذيذ من لذّةٍ، ولا للجميل من جمالٍ.

ضاقت عليهم نفوسهم.

«وما نفضْنا عن النّبيّ ﷺ الأيدي، حتى أنْكرنا قلوبنا».

ما نفضوا الأيدي عن النّبيّ ﷺ، وانتهوا من دفنه، حتى أنكروا قلوبهم، فما هي القلوب التي يعرفون؟

أنكروا قلوبهم - رضي الله تعالى عنهم -، وذلك لرقّة إحساسهم ومشاعرهم.

ولكن؛ ماذا نعملُ بقلوبنا التي لم تُنكِر والعيون التي لم ترَ شيئاً؟

من يهُنْ يَسْهُلِ الهوانُ عليه

ما لجرحٍ بميتٍ إيْلامُ

بكاء أُمِّ أيمن لموته ﷺ وتهييجُها أبا بكر وعمر ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ على البكاء

عن أنس قال: «قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ بعد وفاة رسول الله ﷺ ـ لعمر: انطلقْ بنا إلى أُمِّ أيمن[1] نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما انتهينا إليها بكتْ، فقالا لها: ما يبكيكِ؟ ما عند الله خيرٌ لرسول الله ﷺ؟ فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعْلَمَ أنّ ما عند الله خيرٌ لرسول الله ﷺ؛ ولكن أبكي أنّ الوحي قد انقطع من السماء، فهيّجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها»[2].

وبهذه المناسبة أقول:

يا أُمَّ أيمن قد بكيت وإننا

نلهو ونمْجُنُ دون معرفة الأدب

---

(١) وقد كانت ـ رضي الله عنها ـ حاضنَةَ رسولِ الله ﷺ وخادمَتَه في طفولته.

(٢) أخرجه مسلم: ٢٤٥٤.

لم تُبصري وضْعَ الحديث ولا الكذب

لم تُبصري بعض المعازف والطّرب

لم تشهدي شُرب الخُمور أو الزنا

لم تلحظي ما قد أتانا من عَطَب

لم تلحظي بدع الضّلالة والهوى

لولا مماتُكِ قد رأيت بنا العجب

لم تعلمي فعل العدوِّ وصحبهم

ها نحن نجثو لليهود على الرُّكب

واحَرَّ قلبي من تمَزُّق جَمْعنا

أضْحَتْ أمورُكِ أُمّتي مِثْلَ اللُّعَب

تالله ما عَرَف البُكاءُ صِراطنا

ومع التّباكي لا وشائج أو نسب

الرسول ﷺ أمنة الصحابة - رضي الله عنهم -

وا ألماه لفقد رسول الله ﷺ أمنة الصحابة - رضي الله عنهم -.

عن أبي موسى - رضي الله عنه -، عن النّبيّ ﷺ؛ قال: «النُّجومُ أمَنةٌ للسماء، فإذا ذهبت النجومُ؛ أتى السماء ما توعدُ، وأنا أمنةٌ لأصحابي، فإذا ذهبْتُ؛ أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنةٌ لأمّتي، فإذا ذهب أصحابي؛ أتى أمّتي ما يوعدون[1]».

---

(١) (النجوم): أي: الكواكب.

(أمَنة)؛ بمعنى: الأمن؛ يعني: أنها سبب أمن السماء، فما دامت النجوم باقية؛ لا تنفطر ولا تتشقّق، ولا يموت أهلها.

(فإذا ذهبت النجوم)؛ أي: تناثرت.

(أتى السماء ما توعد)؛ أي: من الانفطار، والطيّ كالسجل.

(فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون): من الفتن والحروب واختلاف القلوب.

(فإذا ذهب أصحابي أتى أُمّتي ما يوعدون): من ظهور البدع، وغلبة الأهواء، واختلاف العقائد، وظهور الروم، وانتهاك الحرمين، وقلّت الأنوار، وقويت الظلمات. «فيض القدير» - بحذف وتصرّف - والحديث أخرجه مسلم: ٢٥٣١.

ماذا إذا ذهبت النجوم؟!

تختلف معالم الحياة، تقع تغيُّراتٌ مُفْزِعة، مرعبة، مُخيفة، وكذا بذَهاب النّبيّ ﷺ عن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فإنّ حياتهم تختلف، وأمورهم تتغيَّر، ويقع بينهم الاشتجار والنزاع.

وأيضاً؛ بذَهاب الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ تحصل اختلافات كثيرة في الأُمّة، وتقع تغيُّرات عجيبة، وتعظُم الفتن والمصائب؛ فها هي البدع قد أصبحت سُنناً، والسُّنن بدعاً، والمعروف مُنكراً، والمنكر معروفاً، عمّ الجهل، واندثر العلم؛ إلا عند قليل من عباد الله، اختصَّهم برحمته.

عُطِّلَ الحكم بما أنزل الله ـ تعالى ـ وسُخِّرَت الفتاوى لنصرة الهوى والرغبات والشهوات، وانقسم المسلمون على أنفسهم، وتفرّقوا شِيَعاً وأحزاباً.

وهذا يذكِّرنا بما صحَّ عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ موقوفاً؛ وهو مرفوعٌ إلى النّبيّ ﷺ حُكماً [1]؛ أنه قال: «كيف أنتم إذا لَبِستكُم فتنةٌ؛ يَهْرَم فيها الكبير، ويربو فيها

---

(١) كذا قال شيخنا ـ رحمه الله تعالى ـ.

الصغير، ويتّخذُها الناس سُنّةً، إذا تُرك منها شيءٌ؛ قيل: تُركت السُّنّة؟، قالوا: ومتى ذاك؟ قال: إذا ذهبت عُلماؤكم، وكثُرت قُراؤكم، وقَلّت فقهاؤُكم، وكثرت أُمراؤكم، وقلّت أُمناؤكم، والتُمِستِ الدُّنيا بعمل الآخرة، وتُفُقِّه لغير الدين»[1].

فإذا كان بذَهاب الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ يأتي أُمَّتَنا ما توعده؛ فما الذي توعده من ذَهَاب النّبيّ ﷺ؟

الردّ على من يقول: «موته ﷺ ليس بمصيبةٍ، والكتاب والسنة بين أيدينا!».

قالوا: هذا كتابُ الله ـ تعالى ـ العظيمُ، وهذه سُنّة رسول الله ﷺ المطهَّرةُ، فما الذي نخشاه من موت رسول الله ﷺ؟

على مِثل هذا أجاب رسول الله ﷺ؛ فلنسمع لإجابته: عن زيد بن لبيدٍ ـ رضي الله عنه ـ، قال: «ذكر النّبيّ ﷺ شيئاً، فقال: ذاك عند أوان ذهاب العلم.

---

(١) أخرجه الدارمي (١/ ٦٤) ـ بإسنادين: أحدُهما صحيح، والآخر حسن ـ والحاكم (٤/ ٥١٤)، وغيرهما؛ كما في «قيام رمضان» لشيخنا الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ.

قلت: يا رسول الله! وكيف يذهب العلم ونحنُ نقرأُ القرآن، ونُقْرئُه أبناءنا، ويُقرئُهُ أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟!

قال: ثكلتك أُمُّك زيادُ! إنْ كُنتُ لأراك من أفقه رجلٍ بالمدينة، أَوَليس هذه اليهود والنّصارى يقرؤون التوراة والإنجيل؟ لا يعملون بشيءٍ مما فيهما!»[1].

هذا كتاب الله ـ تعالى ـ، وهذه سنة رسول الله ﷺ، ولكن ... أين العمل؟ أين الدّعوة؟

بل أين العلم الصَّحيح قبل العمل والدّعوة؟

إذنْ؛ لا مكان لمثل هذه الكلمات، ولا صحَّة لمثل هذه الأقوال!

لقَدِ ارتضَتِ الأُمّة محمّداً ﷺ رسولاً نبيّاً، وأميراً، وقائداً، وحاكماً، ومربّياً، فمن الذي تجتمعُ عليه الأُمّة الآن؟

ليتنا نَعْلَمُ كيف كانت الدُّنيا في حياته وعهده ﷺ وكيف أصبحَتِ الآن؟

---

(١) أخرجه الترمذي، وأحمد، وابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٢٧٢)، وغيرهم.

كان العزُّ، والمجد، والرِّفعة، وها نحن نتخبّط في دياجير الظُّلُمات.

إنّنا نرجو رحمة الأُمم العظمى؛ نخشى قهرها وتدميرها لنا.

الأخبار في الصُّحُف تتحدّث عما يَمَسُّنا؛ من قتلٍ، واحتلالٍ، وغزوٍ، واستعبادٍ، ومؤامرات، وخُطط تُحاك لأُمَّتنا.

الحزبيّة البغيضة تَنْهَشُ الأُمّة؛ كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون.

باسم الإسلام؛ يُهاجَمُ الإسلامُ، والعلماءُ، والدُّعاةُ.

باسم أهل البيت يُسبُّ أهلُ البيت.

تعدّدت القَنَاعات، وتضاربت، وتناقضت، وتناطحت.

قلّ طُلاّب الجنّة وكثُر طُلاّب النّار.

كُذِب على رسول الله ﷺ، وأصبح من العسير تمييزُ الصحيح من الضعيف على الناس.

أصبح اختلاق الأحاديث ميسوراً لكل صاحب هوى.

البدع تُقدَّس كأنّها أصلُ الدين وركنٌ من أركانه!

صاحب السنة مبتدع، والمبتدع هو صاحب السنة!

كثُرت الرؤوس المدبرةُ والمُخطِّطة.

امتطى الإسلام ذوو الأهواء والشُّبهات.

أصبح الحليم في حَيْرةٍ وقلقٍ.

بيننا وبين الفهم الصحيح مفاوِزُ؛ تنقطع فيها أعناقُ المطيِّ.

ولو قال لنا الخطيب أو الواعظ: قال رسول الله ﷺ؛ لَلَزِمنا أن نبحث ونبحث عن صحة الحديث، ولا ندري: أنلقَى مَنْ مَنَّ الله عليه بالموازين الصحيحة الدقيقة في هذا الفنِّ أم لا؟

فإذا صحّ الحديث - وقلَّما يصحُّ مع الأسف - لزِمَنا أن نتعرَّف فقْهَه وما يُرشد إليه، وعلينا أن نغوص ببحور أصول الفقه؛ لعلَّنا نخرج على شواطئه بنتيجة، مع غوصٍ آخر لا بدَّ في عالم اللغة وما فيها من أوجه وآراء ...

فإذا انتهينا من هنا وهناك بأمان؛ نسينا العمل بما علِمنا، وقعدْنا عن الدَّعوة بما ينبغي أن نعمل[1].

أليست هذه المصائب والمتاعب من نَتَاج موت النّبيّ ﷺ؟

---

(١) إلاَّ من رحمَ الله، وقليل ما هم.

أليست هذه من نَتَاج موت أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ؟

أليست هذه من نَتَاج عدم العمل بكتاب الله ـ تعالى ـ وسنّة رسوله ﷺ؟

ماذا بعد موت النّبيّ ﷺ؟

ذرفت العيون، ووَجِلَتِ القلوب؛ ولكن؛ ما العمل؟

العمل العمل بكتاب الله ـ تعالى ـ.

العمل العمل بسُنّة رسول الله ﷺ.

لقد بيّن رسول الله ﷺ أنّ سبب ضلال اليهود والنصارى هو عدم العمل بالتّوراة والإنجيل، فعلينا بالعمل والمسارعة فيه.

وعلينا بمبدأ التمحيص وعدم تلقّي غير الثابت من الأحاديث؛ لأن هذا الأمر دين، وهذا القولَ شرع؛ فلننظر عمّن نأخذ ديننا[1].

وعلينا بالعلم ومجالسة العلماء.

ولنتدبر وصيّةَ عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله تعالى ـ وهو

(١) هذا مقتبس من قول محمّد بن سيرين ـ رحمه الله تعالى ـ: =

يكتبها إلى أبي بكر بن حزم: «انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه؛ وإنِّي خِفْتُ دروس[1] العلم، وَذَهَاب العلماء؛ ولا تقبل إلا حديث النّبيّ ﷺ.

ولْتُفشوا العلم، ولْتَجْلِسوا حتى يُعلَّم من لا يعْلَم؛ فإنّ العلم لا يهلِكُ حتى يكون سِرّاً»[2].

فمجالس العلم تجعلنا نصحب النّبيّ ﷺ كما قال الشاعر:

أهل الحديث هم أهل الرّسول وإنْ

لم يصحبوا نفسه أنفاسَهُ صحبوا

فلنصحب رسول الله ﷺ في صلاته.

= «إن هذا العلم دين، فانظروا عمّن تاخذون دينكم». عن مقدّمة «صحيح مسلم».

(١) أي: زوال.

(٢) عن «صحيح البخاري» - (كتاب العلم، باب: كيف يقبض العلم) - مُعلّقاً بصيغة الجزم، وذكر الحافظ وصْل أبي نُعَيْم له في «أخبار أصبهان» بنحوه.

وهذا ما نراه رأي العين ونلمسه لمس اليد؛ من خلال التحزُّبات والجَلَسات السريّة، وإلى الله - تعالى - المشتكى.

ولنصحب رسول الله ﷺ في صيامه.

ولنصحب رسول الله ﷺ في زكاته.

ولْنَصْحَبه ـ عليه السلام ـ في حَجِّه.

ولْنَصْحَبه ـ عليه السلام ـ في سلوكه.

ولْنَصْحَبه ـ عليه السلام ـ في جهاده.

ولا تَقْبَلْ إلا حديث النّبيّ[1] ﷺ.

فحديثه الشفاء والنور؛ وفيه النجاة، والفوز، والسعادة.

تدبُّر الوصية

إنَّ شأن كُلِّ مُفارق مودِّع أنْ يكتب الوصيَّة، فهل ترك رسول الله ﷺ لنا وصيّة يوصينا بها؟

نعم؛ لقد ترك جامعةَ الوصايا وأمَّ المواعظ.

عن عبدالرحمن بن عمرو السلمي، عن العرباض بن سارية ـ رضي الله عنه ـ وكان من البكّائين ـ، قال: «صلّى

(١) لا يعني هذا عدَمَ الاستفادة من أقوال العلماء، وتفسيراتهم، وترجيحاتهم؛ بل الضلال في ترك كتبهم وفقههم، كما أن الضلال ـ أيضاً ـ بالتعصُّب لأقوالهم، أو تقديمها على حديث النّبيّ ﷺ.

رسول الله ﷺ الغداة، ثمّ أقبل علينا بوجهه، فوعظَنا موعظةً بليغةً، ذرفت منها الأعين، ووجلت منها القلوب، فقال رجل: يا رسول الله! كأنَّ هذه موعظةُ مودِّع؟! فقال: اتقوا الله، وعليكم بالسمع والطاعة، وإنْ عبداً حبشياً، وإنّه من يعِش منكم بعدي؛ فسيرى اختلافاً كثيراً؛ فعليكم بسنتي وسنّة الخلفاء من بعدي الراشدين المهديين، عضُّوا عليها بالنَّواجذ وإيّاكم ومحدثات الأُمور؛ فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالة»[1].

لا بُدَّ من تدبُّر الوصيّة.

لا بُدَّ من أن نعيش مع الوصيّة وتعيش معنا.

لا بُدّ أن نتذكّرها في كل شأنٍ من حياتنا.

... في الملذّات والمسَّرات، وفي الآلام والأحزان ... في الأمن والفتن، في الائتلاف والاختلاف؛ لأنَّ فيها أسباب السعادة وأسرار النّجاة.

---

(١) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٣٨٥١)، والترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢١٥٧)، وابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٤٠).

الفهرس

المقدّمة ٥
موت رسول الله ﷺ أعظم المصائب ٩
ما قدَّمه ﷺ من خير؛ أكثر مما قدّمه أيّ قريب أو حبيب ١٣
شعور الصحابة – رضي الله عنهم – عند موت النّبيّ ﷺ ... ١٤
بكاء أم أيمن لموته ﷺ وتهييجها أبا بكر وعمر -رضي الله عنهم جميعاً- على البكاء ٢١
الرسول ﷺ أمنة الصحابة -رضي الله عنهم- ... ٢٣
الرد على من يقول: «موته ﷺ ليس بمصيبة، والكتاب والسنّة بين أيدينا»! ٢٥
ماذا بعد موت النّبيّ ﷺ؟ ٢٩
تدبر الوصيّة ٣١
الفهرس ٣٣